

بلاغة تكرار ألفاظ (الرحمة) في سورة مريم

د. رعد طالب كريم

كلية التربية الاساسية / جامعة ديالى

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
اجمعين وبعد..
فإن القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه ، ولا تنقضي أسرارها ، ومن تلك المعاني الجميلة
واللمحات العظيمة ما خص من دقة التعبير ، وانتقاء الألفاظ ، فكل لفظ له معنى خاص لا
يقوم به غيره.
ومن المعاني اللطيفة التي وقع اختيارنا عليها (التكرار) وما له من بلاغة ظاهرة
للقارئ والمتأمل في هذا الكتاب العظيم.
ومن بين التأملات التي وقعت بين أيدينا تكرار الرحمة في سورة مريم ، وهو تكرار
ملفت للنظر والتساؤل ، فمن شأن الرحمة أن تذكر في مواضع البر والاحسان والنعمة
والخير والتكريم .. أما ذكرها في مواطن العقوبة والعذاب فلا شك ان في ذلك حكمة ! تحتاج
الى دراسة.
ومن شأن السورة ان تذكر صفات الباري عزوجل لتلائم كل صفة الموضوع المتعلق
بها ! أما أن تكون صفة (الرحمن) هي العنوان الأول في السورة فلا بد ان لذلك من سبب !
يحتاج الى بيان.
ونحن في هذا الموضوع نتناول الآيات القرآنية التي تكرر فيها لفظ الرحمة بمشتقاتها
التي هي عبارة عن (الرحمن) و (رحمة) لتكون الدراسة مكونة من مبحثين الأول : بلاغة
التكرار ، ومفهوم الرحمة ، وتقديم لسورة مريم.
والثاني : بلاغة تكرار ألفاظ الرحمة في سورة مريم.
وخاتمة لأهم النتائج التي توصلنا اليها.
نسأل الله تعالى التوفيق في ذلك انهمسبح مجيب وآخر دعوانا ان الحمد لله رب
العالمين.

الباحث

المبحث الأول

بلاغة التكرار ، ومفهوم الرحمة ، وتقديم سورة مريم
أولا : بلاغة التكرار

التكرار هو أحد الاساليب البلاغية الجميلة التي تشكل مجموعها قاعدة هامة للإعجاز القرآني ، يقول الزركشي : (وقد غلط من انكر كونه من اساليب الفصاحة ، ظنا أنه لا فائدة له ، وليس كذلك بل هو من محاسنها ، لا سيما إذا تعلق بعبءه ببعض ، وفائدته العظمى التقرير ، وقد قبل الكلام إذا تكرر تقرر) (١).

ويقول الزمخشري : (ان في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس ، وتثبيتا لها في الصدور ، ألا ترى انه لا طريق الى تحفظ العلوم الا ترديد ما يرام حفظه منها ، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلوب ، وأرسخ له في الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان) (٢)

ثانيا : مفهوم الرحمة

الرَّحْمَةُ فِي اللُّغَةِ : الرَّقَّةُ وَالتَّعَطُّفُ وَالمَرَحَمَةُ ، وَقَدْ رَحِمْتُهُ وَتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ وَتَرَاخَمَ الْقَوْمُ رَحِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَالرَّحْمَةُ المَغْفِرَةُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْقُرْآنِ (هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (٣) أَيْ فَصَّلْنَاهُ هَادِيًا وَذَا رَحْمَةٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ) (٤) أَيْ هُوَ رَحْمَةٌ لِأَنَّهُ كَانَ سَبَبَ إِيمَانِهِمْ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) (٥) مَعْنَاهُ ، يَخْتَصُّ بِنُبُوَّتِهِ مِمَّنْ أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ مِصْطَفَى مَخْتَارٍ (٦).

ومن اشتقاق الرحمة (الرَّحْمَنُ) وهو مقصور على الله عز وجل ومنه (الرحيم) وقد يكون لغيره تعالى ، قال الزجاج : (الرَّحْمَنُ اسم من أسماء الله عز وجل مذكور في الكتب الأولى ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله ، ومعناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة لأن فعلان بناء من أبنية المبالغة وَرَحِيمٌ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ كما قالوا سَمِعْتُ بِمَعْنَى سَامِعٌ وَقَدِيرٌ بِمَعْنَى قَادِرٍ) (٧).

قال الأزهري : (ولا يجوز أن يقال رَحْمَنُ إِلَّا اللهُ عز وجل وَقَوْلَانِ مِنْ أبنية ما يُبَالَعُ فِي وَصْفِهِ فَالرَّحْمَنُ الَّذِي وَسَعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ رَحْمَنُ لِغَيْرِ اللهِ) (٨).

وقال ابن عباس : (هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر فالرَّحْمَنُ الرقيق ، والرَّحِيمُ العاطف على خلقه بالرزق) (٩) .

والرَّحْمَةُ فِي بني آدم عند العرب رِقَّةُ القلب وعطفه وَرَحْمَةُ اللهِ عَطْفُهُ وَإِحْسَانُهُ وَرِزْقُهُ (١٠).

(١) البرهان ١٢/٣ .

(٢) الكشف ٣٨٥/٣ .

(٣) سورة الاعراف : ٢٠٣ .

(٤) سورة التوبة : ٦١ .

(٥) سورة البقرة : ١٠٥ .

(٦) ينظر لسان العرب ٢٣٠/١٢ .

(٧) لسان العرب ٢٣٠/١٢ .

(٨) المصدر نفسه ٢٣٠/١٢ ، وينظر القاموس المحيط ٢٢٩/٢ ، وتاج العروس ٧٧٢٦/١ .

(٩) لسان العرب ٢٣٠/١٢ .

(١٠) ينظر الصحاح ٢٤٧/١ ، والقاموس المحيط ٢٢٩/٢ ، وتاج العروس ٧٧٢٦/١ .

أما اصطلاحاً فقد عرف الجرجاني الرحمة بقوله : (هي إرادة إيصال الخير) (١).

ثالثاً : مقدمة عن سورة مريم
اسم هذه السورة (سورة مريم) ، ووجه التسمية أنها بسطت فيها قصة مريم وابنها وأهلها قبل أن تفصل في غيرها . ولا يشبهها في ذلك إلا سورة آل عمران التي نزلت في المدينة (٢).

وروي عن ابن عباس أنه سمّاها سورة (كَهَيَّعَصَ) ، وهي مكية (٣) عند الجمهور . وعن مقاتل : أن آية السجدة مدنية . قال ابن عاشور : (ولا يستقيم هذا القول لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها إلا أن تكون ألحقت بها في النزول وهو بعيد) (٤).

وذكر السيوطي في «الإتقان» قولاً بأن آية السجدة ، وقوله تعالى : { وإن منكم إلا واردها } (٥) مدني ، ولم يعزه لقائل (٦) .

وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول؛ نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه (٧).

وعدت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة تسعاً وتسعين . وفي عدد أهل الشام والكوفة ثماناً وتسعين (٨) .

أما عن أغراض السورة فمنها أنها نزلت للردّ على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها ، فكان فيها بيان نزاهة آل عمران وقداستهم في الخير .

ثم التنويه بجمع من الأنبياء والمرسلين من أسلاف هؤلاء وقرابتهم ، وبيان حال بعض خلفهم من ذرياتهم الذين لم يكونوا على سننهم في الخير من أهل الكتاب والمشركين وأنوا بفاحش من القول إذ نسبوا لله ولداً ، وأنكر المشركون منهم البعث وأثبت النصارى ولداً لله تعالى .

والتنزيه بشأن القرآن في تبيخيره وإنذاره ، وأن الله يسره بكونه عربياً ليسر تلك اللغة .

والإنذار ممّا حل بالمكذابين من الأمم من الاستئصال .

واشتملت على كرامة زكريا إذ أجاب الله دعاءه فرزقه ولداً على الكبر وعُقر امرأته وكرامة مريم بخارق العادة في حملها وقداسة ولدها ، وهو إرهاب لنبوءة عيسى عليه السلام . ومثله كلامه في المهد .

والتنزيه بإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، وإسماعيل ، وإدريس عليهم السلام .

ووصف الجنة وأهلها .

وحكاية إنكار المشركين البعث بمقالة أبي بن خلف والعاصي بن وائل وتبجحهم على المسلمين بمقامهم ومجامعهم .

وإنذار المشركين أن أصنامهم التي اعتزوا بها سيندمون على اتخاذها .

(١) التعريفات ٣٦/١ .
(٢) ينظر التحرير والتنوير ٤٤٣/٨ .
(٣) ينظر تفسير القرطبي ٧٢/١١ .
(٤) التحرير والتنوير ٤٤٤/٨ .
(٥) سورة مريم : ٧١ .
(٦) ينظر الإتقان ١٥/١ ، والتحرير والتنوير ٤٤٤/٨ .
(٧) التحرير والتنوير ٤٤٤/٨ .
(٨) التحرير والتنوير ٤٤٤/٨ .

ووعد الرسول النصر على أعدائه .
وذكر ضرب من كفرهم بنسبة لولد الله تعالى .
والتنويه بالقرآن ولغته العربية ، وأنه بشير لأوليائه ونذير بهلاك معانديه كما هلكت
قرون قبلهم(١) .

تتميز سورة مريم بكونها بنيت على الرحمة واللطف والاحسان فالقارىء لآياتها
والمتمعن بعباراتها ومعانيها يجد ان الرحمة تكررت كثيرا فيها رغم اختلاف المواضيع
وتعدد الصور، فقد ذكرت الرحمة ومشتقاتها (٢٠) مرة ، منها (١٦) مرة بلفظ
(الرحمن) ، و(٢) مرة بلفظ (رحمة) ، و(٢) مرة بلفظ (رحمتنا) ، وذلك يظهر أن من
مقاصدها تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمن . والرد على المشركين الذين تقعدوا بإنكار
هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم في قوله تعالى { وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا
وما الرحمن } (٢).

المبحث الثاني

بلاغة تكرار ألفاظ الرحمة في سورة مريم
ان الظل الغالب في جو هذه السورة هو ظل الرحمة والرضى والاتصال . فهي تبدأ
بذكر رحمة الله لعبده زكريا { ذكر رحمة ربك عبده زكريا } وهو يناجي ربه نجاء : { إذ
نادى ربه نداء خفياً } . . ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيراً . ويكثر
فيها اسم { الرحمن } . ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ود : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } (٣) ويذكر من نعمة الله على يحيى أن آتاه الله
حناناً { وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً } . ومن نعمة الله على عيسى أن جعله براً بوالدته
وديعاً لطيفاً : { وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً } . .
وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبتها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال .
كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته . . (٤)
هاهي سورة مريم من افتتاحها تبدأ بالرحمة يقول سبحانه وتعالى { كهيعص* ذَكَرُ
رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا } (٥)

افتتحت قصة مريم وعيسى بما يتصل بها من شؤون آل بيت مريم وكافلها لأن في
تلك الأحوال كلها تذكيراً برحمة الله تعالى وكرامته لأوليائه(٦) ، ومعنى ذكر الرحمة بلوغها
وإصابتها ، كما يقال : ذكرني معروف فلان أي بلغني(٧) ، فما هذه الرحمة وما وجهها ؟

يقول الرازي : ثم في كونه رحمة وجهان(١) :

(١) التحرير والتنوير ٤٤٤/٨ .

(٢) سورة الفرقان : ٦٠ .

(٣) سورة مريم : ٩٦ .

(٤) ينظر في ظلال القرآن ٨٧/٥ .

(٥) سورة مريم : ١-٢ .

(٦) ينظر التحرير والتنوير ٤٤٦/٤ .

(٧) ينظر تفسير أبي السعود ٢٩٦/٤ .

أحدهما : أن يكون رحمة على أمته لأنه هداهم إلى الإيمان والطاعات .
والآخر : أن يكون رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمة محمد لأن الله تعالى
لما شرح لمحمد صلى الله عليه وسلم طريقه في الإخلاص والابتهاال في جميع الأمور إلى
الله تعالى صار ذلك لفظاً داعياً له ولأتمته إلى تلك الطريقة فكان زكريا رحمة .

وقال صاحب النكت والعيون : (فذكر رحمته حين أجابه إلى ما سأله فاحتمل
وجهين : أحدهما : أنه رحمه بإجابته له ، الثاني : أنه إجابة لرحمته له) (٢).

هذا وفي قوله تعالى (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ) أربع قراءات لها اثر في تقدير معنى
الرحمة ذكرها الرازي بقوله (في لفظة ذكر أربع قراءات صيغة المصدر أو الماضي مخففة
أو مشددة أو الأمر ، أما صيغة المصدر فلا بد فيها من كسر رحمة ربك على الإضافة ثم فيها
ثلاثة أوجه : أحدها : نصب الدال من عبده والهمزة من زكرياء وهو المشهور . وثانيها :
برفعهما والمعنى وتلك الرحمة هي عبده زكرياء عن ابن عامر . وثالثها : بنصب الأول
وبرفع الثاني والمعنى رحمة ربك عبده وهو زكرياء . وأما صيغة الماضي بالتشديد فلا بد
فيها من نصب رحمة . وأما صيغة الماضي بالتخفيف ففيها وجهان . أحدهما : رفع الباء من
ربك والمعنى ذكر ربك عبده زكرياء . وثانيها : نصب الباء من ربك والرفع في عبده
زكرياء وذلك بتقديم المفعول على الفاعل وهاتان القراءتان للكلبي ، وأما صيغة الأمر فلا بد
من نصب رحمة وهي قراءة ابن عباس . واعلم أن على تقدير جعله صيغة المصدر
والماضي يكون التقدير هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك) (٣).

والى قصة مريم التي تكتنفها الرحمة وتحيط بها حيث يقول سبحانه { وَادْكُرْ فِي
الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا
فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا } (٤) وذكر الباري سبحانه
وتعالى هنا بصفة (الرحمن) دون غيرها من صفات الله له أكثر من حكمة منها:

* (اني أعوذ بالرحمن) أي ربي الذي رحمته عامة بجميع عباده في الدنيا والآخرة ، وله بنا
خصوصية في اسباغ الرحمة واتمام النعمة (٥).

* ومنها انها خصت الرحمن بالذكر لتثير مشاعر التقوى في نفسه ، إذ من شأن الانسان التقى
ان ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله ويرحم ضعفها
وعجزها عن دفعه (٦).

ويستمر السياق في قصة عيسى ومريم بذكر الرحمة في قوله تعالى { قَالَتْ أَنَّى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَعْجِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً
لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا } (٧) فما وجه ذكر الرحمة هنا ؟ ولمن هي ؟

والجواب ان الله تعالى قال { وَرَحْمَةً مِنَّا } أي ولنجعل رحمة منا به لما خصه
بوحيه ومن عليه بما من به على أولي العزم ، ورحمة بوالدته لما حصل لها من الفخر والثناء
الحسن والمنافع العظيمة ، ورحمة بالناس فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولا يتلو

(١) ينظر التفسير الكبير ٢٦١/١٠ ، والوسيط ، سيد طنطاوي ٦٠٢٧/١ .

(٢) النكت والعيون ٨/٣ ، وينظر أضواء البيان ٤٢٤/٣ .

(٣) التفسير الكبير ٢٦١/١٠ .

(٤) سورة مريم : ١٨ .

(٥) ينظر نظم الدرر ١٩٦/٥ ، والتحرير والتنوير ٤٥٨/٨ .

(٦) ينظر في ظلال القرآن ٩٣/٥ ، والوسيط ٢٧٧٠/١ .

(٧) سورة مريم : ٢١ .

عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ، فكل نبي رحمة لأمته(١).

كذلك هو رحمة للناس بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه(٢).

ثم إذا حانت ساعة الامتحان الصعب بملاقاة مريم لقومها وقد ولدت عيسى وهي تحمله بين يديها فياله من موقف عصيب ، ويالها من ساعة أحوج ما تكون فيه إلى الرحمة الالهية ، فكان التوجه الرباني بقوله تعالى (فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا* فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) (٣) فخصت الرحمن بالذكر ، قال البقاعي : { إني نذرت للرحمن { أي الذي عمت رحمته فأدخلني فيها على ضعفي وخصني بما رأيت من الخوارق } (٤)

ثم ينتقل السياق الى القصة التالية في سورة مريم ، وهي قصة ابراهيم عليه السلام مع والده ، وهي لا تقل أهمية عن القصة الأولى فجانب الصراعات النفسية وجانب التمسك بالدعوة واللطف الالهي حاضر في كل مشهد ، قال تعالى { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا* يَا أَبَتِ إِنِّي فَقَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا* يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا* يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) ففي قوله تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) (٥) نجد ان التعرض لعنوان الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه ، يقول الألوسي : (عليل لموجب النهي وتأكيد له ببيان أنه مستعص على من شملتك رحمته وعمتك نعمته . ولا ريب في أن المطيع للمعاصي عاص وكل من هو عاص حقيق بأن تسترد منه النعم وينتقم منه ، وللإشارة إلى هذا المعنى جيء بالرحمن . وفيه أيضاً إشارة إلى كمال شناعة عصيانه(٦) .

وفي الاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جنائياته لأنه ملاكها أو لأنه نتيجة معاداته لأدم عليه السلام فتذكيره داع لأبيه عن الاحتراز عن موالاته وطاعته ، والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير(٧).

ويقول السعدي : (وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال: { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ } أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان { فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } أي: في الدنيا والآخرة، فتتنزل بمنزله الذميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخيره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنتك إن أطعتني، اهتديت إلى صراط مستقيم(٨).

(١) ينظر تفسير القرطبي ٩١/١١ ، وزاد المسير ٢٦٦/٤ ، وأبي السعود ٣٠٧/٤ ، وفتح القدير ٤٦٦/٤ ، وتفسير السعدي ٤٩١/١ ، والوسيط ٢٧٧١/١ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٩٤/٥ .

(٣) سورة مريم : ٢٦-٢٧ .

(٤) نظم الدرر ١٩٦/٥ .

(٥) سورة مريم : ٤١-٤٥ .

(٦) ينظر تفسير ابي السعود ٣١٣/٤ .

(٧) روح المعاني ٤٩٩/١ .

(٨) تفسير السعدي ٤٩٤/١ .

أما في قوله تعالى (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتُكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) فللسائل ان يسأل كيف ورد في النص لفظ (عذاب من الرحمن) ؟ أليس من الأولى لو اختار القرآن صفة أخرى من صفات الباري عز وجل تتلاءم مع العذاب ؟ والجواب من أوجه (١) :

*ان العقوبة من الكريم الحليم أشد .
*انما قال (من الرحمن) لقوله أولا (كان للرحمن عصيا) .
*للدلالة على أنه ليس على وجه الانتقام بل ذلك أيضاً رحمة من الله تعالى على عباده وتنبية على سبق الرحمة الغضب وإن الرحمانية لا تنافي العذاب .

ثم يختم سبحانه القصة بالرحمة التي شملت ابراهيم واسحاق ويعقوب فهذا جزاء الصابرين فكان من مظاهر هذه الرحمة ان رزقه الله الذرية الصالحة واختصهم بالنبوة وهذا كله من رحمته تعالى { فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } (٢) فقوله تعالى (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا) يشمل ابراهيم واسحاق ويعقوب ونسلهم ووجه الرحمة متعدد ومنه (٣)
*النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم أنبياء لبيان أنها من باب الرحمة .

*المال والاولاد وما بسط من سعة الرزق .

*الكتاب

*يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون .

يقول سيد قطب : (والرحمة تذكر هنا لأنها السمة البارزة في جو السورة ، ولأنها هبة الله التي تعوض ابراهيم عن أهله ودياره ، وتؤنسه في وحدته واعتزاله) (٤) .

ثم تنتقل السورة الى قصة أخرى هي قصة موسى عليه الصلاة والسلام وشعارها الرحمة أيضا ، قال تعالى (وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) (٥) ومعنى قوله (ووهبنا له من رحمتنا) أي من أجل رحمتنا له ، وعطفنا عليه . وهبنا له أخاه هارون ليكون عوناً له في اداء رسالته (٦) .

ثم يتناول السياق جمعا من الانبياء والمرسلين خاتما ذكرهم بلفظ الرحمن المتعلق بالآيات التي ما ان تتلى عليهم حتى يخروا سجدا وبكيا ، قال تعالى (وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا * وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا * أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) (٧) وفي

(١) ينظر تفسير ابي السعود ٣١٤/٤ ، وروح المعاني ٥٠٠/١١ .

(٢) سورة مريم : ٥٠-٤٩ .

(٣) ينظر تفسير ابي السعود ٣١٤-٣١٦ ، وفتح القدير ٤٥٩/٤ ، وتفسير السعدي ٤٩٤/١ ، والوسيط ٢٧٨٤/١ .

(٤) في ظلال القرآن ١٠٠/٥ .

(٥) سورة مريم : ٥١-٥٣ .

(٦) ينظر تفسير ابي السعود ٣١٧/٤ ، وروح المعاني ١٢/١٢ ، والوسيط ٢٧٨٣/١ .

(٧) سورة مريم : ٥٤-٥٨ .

إضافة الآيات الى اسمه (الرحمن) دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة(١).
وبعد العرض القرآني الجميل لتلك القصص والأحداث تكون النتيجة المتقبة التي تعرضها السورة بشكل لا يقبل التشكيك أو التأويل ، قال تعالى (جَنَاتٍ وَعَدْنِ الْتِي وَعَدَّ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا) (٢) يقول ابو السعود : (والتعرض لعنوان الرحمة للإيدان بأن وعدّها وإنجازَه لكمال سَعَةِ رحمته) (٣).

ويقول السعدي : (أي: التي وعدّها الرحمن، أضافها إلى اسمه { الرَّحْمَنُ } لأن فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب [بشر]. وسماها تعالى رحمته، فقال: { وَأَمَّا الَّذِينَ ابْطُتَتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } وأيضا ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته، التي هي أثرها وموجبها..) (٤).

أما المعنى المراد في قوله (عباده) فهم عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفا لهم كقوله: { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا } (٥) بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيدا لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم، ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها (٦).

ثم تأتي المقابلة التي انتهجها القرآن الكريم ، فبعد عرض النعيم السابق تأتي صورة المتكبرين على الله ، ووجدوا نعمه فمصيرهم مع الشياطين حول جهنم جثيا ، ثم تأتي الخصوصية بالعذاب من هو أشدهم على الرحمن عتيا ، قال تعالى (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَيْدَا مَا مِثُّ لَسُوفَ أُخْرَجُ حَيًّا* أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا* فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا* ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا* ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا) (٧) ولنا وقفة عند قوله تعالى (.. أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) فان له سبحانه - مع صفة الرحمة التي غمرهم احسانها وبرها - صفات أخرى من الجلال والكبرياء والانتقام فهؤلاء الذين غمرهم احسان الرحمن ثم تكبروا وتجاوزوا الحد حق عليهم ان ينتزعهم الرحمن انتزاعاً يعلم به أهل الموقف أنه أقل من القليل(٨).

والى الآية الخامسة والسبعين وما بعدها من السورة حيث تستعرض صوراً للمجرمين والكافرين ، يقول سبحانه(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا) (٩) والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المدد من أحكامها(١٠).

(١) ينظر تفسير السعدي ٤٩٦/١.

(٢) سورة مريم : ٦١

(٣) تفسير ابي السعود ٣١٨/٤.

(٤) تفسير السعدي ٤٩٦/١.

(٥) سورة الفرقان : ٦٣.

(٦) ينظر تفسير السعدي ٤٩٦/١.

(٧) سورة مريم : ٦٦-٧٠.

(٨) ينظر نظم الدرر ٢٢٠/٥.

(٩) سورة مريم : ٧٥.

(١٠) ينظر روح المعاني ٣٧/١٢.

ويقول سبحانه وتعالى (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا* أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَاهُ مِنَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا* كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا* وَنَرْتُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)(١) فقولته (عند الرحمن) أي العام الرحمة بالانعام على الطائع والانتقام من العصاة ثواباً للطائع { عهداً } عاهده عليه بأنه يؤتية ما ذكر بطاعة فعلها له على وجهها ليقف سبحانه فيه عند قوله(٢).

يقول الألوسي : (والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمة لإيتاء ما يدعيه) (٣).

ثم يعود السياق الى يوم القيامة ، والناس ما بين مكرم ومبجل ، وما بين معذب ومهان ، وما تزال ألفاظ الرحمة في هذه المشاهد ، يقول سبحانه (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا* وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا* لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)(٤) ففي النص يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين، والمجرمين، وأن المتقين له يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفوداً إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالوافد إليه ما هو معلوم، فالمتقون يفدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مرضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب على السنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله(٥).

ان لفظة الوفد مشعرة بالاكرام والتبجيل حيث أذنت بتشبيه حالة المتقين بحالة وفود الملوك ، يقول الألوسي : (وليس المراد حقيقة الوفادة من سائر الحيثيات لأنها تتضمن الانصراف من الموفود عليه والمتقون مقيمون أبداً في ثواب ربهم عز وجل . والكلام على تقدير مضاف أي إلى كرامة الرحمن أو ثوابه وهو الجنة أو إلى دار كرامته أو نحو ذلك ، وقيل : الحشر إلى الرحمن كناية عن ذلك فلا تقدير ، وكان الظاهر الضمير بأن يقال يوم نحشر المتقين إلينا إلا أنه اختير الرحمن إيذاناً بأنهم يجمعون من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة إلى من يرحمهم) (٦).

كما ان في اختيار الرحمة هنا لما بنيت عليه سورة مريم من تعداد النعم الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها فكأنه قيل : هنا يوم نحشر المتقين إلى ربهم الذي غمرهم من قبل برحمته وشملهم برأفته وحاصله يوم نحشرهم إلى من عودهم الرحمة وفي ذلك من عظيم البشارة ما فيه(٧).

وفي النص احتباك كما يقول البقاعي : (ذكر الرحمن أولاً دليلاً على المنتقم ثانياً ، وجهنم ثانياً دليلاً على حذف الجنة أولاً) (٨).

وفي قوله تعالى (مَنْ آتَاهُ مِنَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) يقول ابو السعود : (والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمة لإيتاء ما يدعيه)(٩).

(١) سورة مريم : ٧٧-٨٠.

(٢) ينظر نظم الدرر ٢٢٣/٥.

(٣) روح المعاني ٣٧/١٢.

(٤) سورة مريم : ٨٥-٨٧.

(٥) ينظر تفسير السعدي ٥٠٠/١.

(٦) روح المعاني ٦٥/١٢.

(٧) ينظر نظم الدرر ٢٢٦/٥ ، وروح المعاني ٦٥/١٢.

(٨) نظم الدرر ٢٢٦/٥.

(٩) تفسير ابي السعود ٣٣٠/٤.

والى نص عظيم من نصوص القرآن الكريم حيث ذكر وصف (الرحمن) أربع مرات فيه ، قال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا* تَكَاذُ السَّمَاوَاتُ يَنْقَطِرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا* أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا* وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا* إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (١) فما السر في تكرير اسم (الرحمن) في هذه الآية أربع مرات؟

والجواب أن في ذلك إيماء إلى أن وصف الرحمان الثابت لله . والذي لا ينكر المشركون ثبوت حقيقته الله وإن أنكروا لفظه . ينافي ادعاء الولد له لأن الرحمان وصف يدل على عموم الرحمة وتكثرها . ومعنى ذلك شاملة لكل موجود مفقتر إلى رحمة الله تعالى . ولا يتقوم ذلك إلا بتحقيق العبودية فيه .لأنه لو كان بعض الموجودات ابنا لله تعالى لاستغنى عن رحمته لأنه يكون بالنبوة مساويا له في الإلهية المقتضية الغني المطلق ولأن اتخاذ الابن يتطلب به متخذه بر الابن به ورحمته له وذلك ينافي كون الله مفيض كل رحمة(٢).

فذكر هذا الوصف عند قوله (وقالوا اتخذ الرحمان ولدا) وقوله (أن دعوا للرحمن ولدا) تسجيل لغباوتهم ، فهو الذي لا منعم غيره ، فكل أحد محتاج إليه وهو غني عن كل أحد (٣).

وذكره عند قوله (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) إيماء إلى دليل عدم لياقة اتخاذ الابن با لله ، وذكره عند قوله (إلا آتى الرحمان عبدا) استدلال على احتياج جميع الموجودات إليه وإقرارها له بملكه إياها ، فهو سبحانه العام بالإحسان(٤).

قال الزمخشري : (اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره . من قبل أن أصول النعم وفروعها منه : خلق العالمين وخلق لهم جميع ما معهم كما قال بعضهم : فليتكشف عن بصرك غطاؤه . فأنت وجميع ما عندك عطاؤه . فمن أضاف إليه ولدا فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم (الرحمن)(٥).

وختام ألفاظ الرحمة في سورة مريم قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (٦) ولا يخفى ما في النص من عذوبة اللفظ ، وتناسق الجرس لتلك المودة والمحبة التي تعم المؤمنين ، المحاطة بالرحمة من قبل الرحمن سبحانه وتعالى.

الخاتمة

- مما تقدم تبين لنا جملة من النتائج نجمها بما يأتي :
- ان التكرار فن من فنون البلاغة القرآنية ، يأتي ليؤدي دورا مخصوصا ، وله أثر في الإعجاز القرآني.

(١) سورة مريم : ٨٨-٩٣ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ٧/٩ .

(٣) ينظر نظم الدرر ٢٢٦/٥ ، والتحرير والتنوير ٨/٩ .

(٤) ينظر المصادر نفسها ٢٢٧/٥ ، ٩-٨/٩ .

(٥) الكشاف ٧٤٤/١ .

(٦) سورة مريم : ٩٦ .

- ان الرحمة هي الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ والمَغْفِرَةُ ، أما الرَّحْمُنُ : فهو اسم من أسماء الله عز وجل ، ومعناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرَّحْمَةِ لأن فَعْلانَ بناء من أبنية المبالغة.
- تكرر لفظ الرحمن في سورة مريم ست عشرة مرة ، لحكم واسباب متعددة.
- تكرر لفظ رحمة أربع مرات ، اثنتان في حالة الافراد (رحمة) ، واثنتان بالإضافة الى ضمير الجلالة (رحمتنا).
- من مقاصد السورة تحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمن . والرد على المشركين الذين تقفروا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله تعالى عنهم في آيات متعددة .
- ضمت سورة مريم مواضيع متعددة كقصص الأنبياء وأخبار السابقين ، وذكر الجنة والنار ، وتنزيه الله عن الولد والشريك ، والتنويه بالقرآن ولغته العربية . وعلى تعدد هذه المواضيع كان لتكرار ألفاظ الرحمة أثر بارز في رسم الصورة القرآنية التي أرادها الحق سبحانه وتعالى.
- ختاماً نسأله تعالى أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وشفاء صدورنا وذهاب همونا وأحزاننا إنه سميع مجيب الدعوات وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

المصادر

- بعد القرآن الكريم
- الاتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) - عالم الكتب - بيروت . (دت)

- البرهان في علوم القرآن - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) تقديم مصطفى عبد القادر عطا - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعرفة - بيروت ، ١٣٩١.
- تاج العروس من جواهر القاموس - للسيد محمد مرتضى الزبيدي الحسيني - الكويت . (دت)
- التعريفات - علي بن محمد بن علي الجرجاني - تحقيق : إبراهيم الأبياري - الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ - دار الكتاب العربي - بيروت.
- تفسير أبي السعود المسمى (ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم) لابي السعود محمد بن احمد العمادي (ت ٩٥١هـ) طبعة منقحة باشراف محمد عبد اللطيف - الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت
- تفسير التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر (د.ت).
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (د.ت).
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) - أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي - (دت) .
- التفسير الوسيط - محمد سيد طنطاوي (دت) .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ت : عبد الرحمن بن معلا اللويح - مؤسسة الرسالة - ط١ - ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ) الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت (د.ت).
- زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي ، ط١ ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧م .
- الصحاح في اللغة - الجوهري - (دت) .
- فتح القدير - الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير - محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليماني الصنعاني (ت ١٢٥٠هـ) ط١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر - ١٣٥٠هـ
- في ظلال القرآن - سيد قطب - ط٧ - دار الشروق - بيروت - لبنان - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- القاموس المحيط - الفيروزآبادي - (دت)
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل - لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨) - دار الفكر للطباعة والنشر (د.ت).
- لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري - الطبعة الأولى - دار صادر - بيروت . (د.ت).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي - (دت) .
- النكت والعيون (تفسير الماوردي) ، تصنيف أبي الحسن علي بن محمد الماوردي (٤٥٠ هـ) ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .